مقاومة الأمير عبد القادر، بين حب الوطن و الغيرة على الدين.
د.علي بن حويدقة -جامعة جيلالي ليابس- سيدي بلعباس.

تنازل الشيخ محي الدين عن القيادة لأسباب موضوعية و ذاتية لصالح ابنه الشاب عبد القادر.وفي 21 نوفمبر 1832، دخل الجديد مدينة معسكر وسط جمع غفير من الرجال و النساء و الأطفال يتبادلون التهاني في مظاهرة ترحيب تعبر عن عهد جديد يذكر بتقاليد النبوة الشامخة. وقد جلس "السلطان" الجديد وسط الرحبة وهو يتقبل البيعة من الوجهاء و الرؤساء الذين تجمعوا حوله. وفي تلك اللحظة ترددت أصوات تهتف "بحياة و نصر السلطان" ، استجابت لعاطفة جياشة، سرعان ما هدأت،عندما ذكر القائد الناس بواجباتهم وبواقع الحال الذي وصلت إليه البلاد ولم يكن ذلك إلا بعد التخلي عن تعاليم الله و الانغماس في الآثام .عندئذ شعر الناس أن عهدا جديدا قد بدأ في الجزائر.

وفي اليوم الموالي،أي في 22 نوفمبر 1832، حضر الأمير عبد القادر إلى سهل "خصيبية"، غير البعيد عن معسكر، فخطب في موكب مهيب استعمل فيه كلمات بسيطة لكنها مشحونة بنور الوحي،مطالبا القبائل بالصمود للدفاع عن الدين و حرمة الوطن،وبالالتفاف حول راية الجهاد مؤكدًا "أن الحرية و الاستقلال لن يكونا إلا بالجهاد. وأن الجنة في ظل السيوف....".

وبعد ذلك ركن القائد الشاب إلى غرفة. وبعد وقت معين، خرج كتابه إلى الناس ببيان بدأ بالحمد و الصلاة على رسول الله ، مذكرا بظروف انتخابه من طرف معظم القبائل ، وواجب الطاعة و شروط البيعة التي هي مسؤولية دينية لاتقبل النقض، وواجبات القائد اتجاه الأمة، و المطابقة للكتاب و السنة.

وقد انتهى البيان بالعبارة التالية:بأمر من المدافع عن الدين، صاحب السيادة علينا أمير المؤمنين، عبد القادر بن محي الدين، نصره الله، آمين. حرر في مدينة معسكر، 22 نوفمبر 1832.**(1)**

من جهة أخرى، كان عبد القادر يعرف جيدا، رغم أنه لم يكن هو نفسه متعصبا، مدى نار التعصب التي تشتعل في صدر كل جزائري (مسلم). وكان يعرف أيضا أنما قد لا يحققه حب الوطن، ستحققه بالتأكيد الغيرة على الدين. لذلك قرر أن يجعل من هذا الشعور الأخير حجر الزاوية في الصرح الذي تجاسرت عبقريته هو وحده على تصوره.

وكان عبد القادر يتساءل عن بواعث كفاح وجهود المحاربين الأبطال.هل كانت جهودا من أجل الطموح و اكتساب المجد أم كانت إرضاءً للعقيدة ؟لأن أكبر الخشية أن يكون الوقوف في وجه الزحف الاستعماري خلال تلك الفترة (ق19م) وقوفا

بطولياً فقط،خاصة و أن مقاومة الشعب جاءت وقد مضى على أفول شمس الجزائر زمن بعيد، وقضت في ليلها وقتا ليس بالقصير.(2)

عندما ذكّر القائد الجديد، الحضور، خلال البيعة، بالكتاب و السنة و الأمجاد، كان يمثل صيحة الروح التي تحررت من أسر الغرائز بعدما تزكت وتمت سيطرة العقيدة عليها، المصحوبة بالفهم الصحيح، أو يكاد يكون صحيحا، للنصوص القرآنية. وعندما رفضت بعض القبائل الانصياع للأوامر والاستجابة للبيعة أدرك الأمير أن الغرائز لم تروض بعد لتسلك نظام خاص تكبح فيه الأهواء.

عمد الأمير عبد القادر إلى تذكير الناس-البسطاء و الوجهاء-أن انقراض الحكومة الجزائرية من سائر المغرب الأوسط،و استيلاء العدو على أراضيها كان بسبب خضوع الجميع لأهوائهم وانغماسهم في آثامهم ، وسكونهم لجور حكامهم (الأتراك) وشيوخ قبائلهم الطامعين في المناصب و الملذات.لذلك كان يركز على البعد الديني لتحقيق غايات هامة منها:التحكم في السلوك الإنساني حتى تجعلها قابلة لإنجاز رسالة جهادية. ثانيا: الاستمرار في القتال لمجابهة الصعوبات التي تعترضه، وثالثا: الاستيعاب الكامل لأهداف هذا القتال الدينية و الدنيوية.(3)

بذلك أدرك الأمير أن الديانة الإسلامية وضع أساسها على طلب الغلب و الشوكة، والافتتاح و العزة، ورفض كل قانون يخالف شريعتها، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها.فالنظر إلى أصولها وقراءة سور كتابها،نحكم حكما لا ريب فيه: بأن المعتقدين بها لابد أن يكونوا أول ملة حربية في العالم، وأن يعدوا الآلات ويتقنوا الفنون العسكرية، فضلا عن الاعتصام بالمنعة و الامتناع من تغلب غيره عليه. وكان القائد ينتزع الأمثلة من واقعه المر الذي خلفه الأتراك وعَمَّقَهُ الاستعمار، ومن تاريخ الأمة الإسلامية نفسها.

هذا الاحتكاك المباشر هو الذي أظهر مقاومة في صورة حركة منعزلة....وهو نفسه السبب في أن يلقى الأمير بمركز الثقل في نشاطه على التحرر في الجزائر،و النزوع إلى المثالية القومية L'idéal patriotique (4)

وهل كانت المثالية القومية تتعارض مع المثالية الدينية L'idéal religieux؟

كان بعض المؤرخين الغربيين خاصة،يصفون حركة الأمير بالمحلية الضيقة،لأسباب منهجية أو حضارية ينتمون إليها والحقيقة أنه لم يخف على الأمير عبد القادر حالة الوهن التي وصلت إليها الأمة في ظل ضعف الخلافة العثمانية ، التي كانت تعاني الضغط السياسي الأوروبي.(5)

في هذه الأثناء جاء الأمير عبد القادر وأعاد ميزان الكفاح مرة أخرى نحو مقاومة الاعتداء الخارجي، وهو اعتداء ظهرفي ثوب عسكري.فبدت لذلك مقاومته عسكرية، أكثر منها دينية، مع أنها قامت على الإسلام واستندت إليه في خطواتها وفي تحديد غايتها.

وهكذا كان لموضوع المقاومة أثر في تكوين الكفاح نفسه....

-على أيام ابن تيمية مثلا كان الكفاح ضد الصليبيين أو التتار.
-على أيام محمد بن عبد الوهاب كان كفاحا ضد البدعة والخرافة.
- على أيام الأمير عبد القادر كان كفاحا عسكريا ضد الاستعمار الغربي(الفرنسي)
لذلك تعتبر مقاومة الأمير عبد القادر في مظهرها مقاومة عسكرية وفي جوهرها مقاومة إسلامية.

وتحدثت وثيقة البيعة الثانية الموقعة في 04 فبراير1833 من قبل الزعماء و العلماء عن وحدة القبائل و الأخذ بتعاليم الإسلام في مقاومة الاستعمار دون تعصب، وفي قيام "الحكومة الجزائرية" الفتية.(6)

وكان الأمير لا يميل إلى العنصر التركي ولا يطمئن إلى جماعة الكراغلة ولا يثق بموظفي و فرسان المخزن لأنهم عجزوا عن حماية البلاد من العدو الخارجي.لهذا عندما فشل الداي حسين في التصدي للجيش الفرنسي ورضخ لشروط قائده في جويلية1830، اعتبر الأمير عبد القادر أن الحكم التركي بالجزائر قد انتهى نهائيا، واقتنع عند ذلك بضرورة تغيير النظام و القوانين التي كان العمل جاريا بها، فأبطل نظام الامتيازات و الحظوة. هذا في الوقت الذي كان فيه أحمد باي يرى ضرورة المحافظة على سلطة البايلك ويعمل على ربط الجزائر بالدولة العثمانية.

وقد أظهر الأمير نقمته في العديد من المراسلات إلى الباب العالي من تصرفات الأتراك الذين حملهم كل المسؤولية فيما حل بالجزائر من ويلات ومحن.

كما اضطر الأمير إلى محاربة القبائل التي رفضت المساهمة في الجهاد بأموالها وفرسانها، والزوايا "القدرية" وأعيان الحضر و زعماء الكراغلة الذين أيدوا موقف أحمد باي.(7)

وقد اعتمد الأمير عبد القادر في كفاحه للاستعمار على الريف الذي كان ينطوي على قدرات قتالية فعالة و إمكانيات اقتصادية وبشرية تمون المقاومة في كل لحظة. وقد أثبت تطور الكفاح الجزائري، أن المقاومة لا يمكن أن تعتمد على بقايا النظام التركي المبني على التمييز و المفاضلة على حساب عامة السكان، بل من الضروري أن ترتكز أساسا على أهالي الريف حيث الاستعداد النفسي القريب إلى الفطرة و الحماس الديني الذي يدعو له الأمير وتعينه عليه الطرق الدينية المجاهدة.(8)

ومما يلاحظ في شأن التصور الذي كان الأمير يملكه حول "الوطن"، فقد استطاع بفضل سعيه الدائم لتوحيد الجزائريين تحت لوائه أن يبسط نفوذه على مناطق شاسعة من الشرق الجزائري مكونا بها ثلاث "خليفاليكات"-ولايات- على رأسها حكام يدينون له بالولاء.(9)

هذا التصور الذي كان ينظر إلى المستقبل و يحاول أن يقدم بديلا للأوضاع التي أدت إلى الاحتلال، وذلك بإنشاء دولة مستقلة تعتمد على الشريعة الإسلامية في تنظيم المعاملات وتكوين المؤسسات التي تتصف بالفعالية و المرونة في تقديم المصالح و

الخدمات.(10) فخلال سنوات 1838و1839 دفع الأمير عبد القادر خططه الإصلاحية إلى الأمام بسرعة فائقة.فجيشه و مدارسه وشرطته ومحاكم قضائه المحلية كلها كان قد أعدها ونظمها بإحكام. وكانت مصانعه التي كان يديرها أوروبيون، تعمل بإتقان في أهم المدن الخاضعة له.وكان هؤلاء (الأوروبيون) قد استدعوا للإقامة في البلاد، مع حق التملك بحرية، وكانت الأرض "تبدو و كأنها تستيقظ من غفلة طويلة. وكانت روح الحضارة الأوروبية تتسرب إلى كل مكان على الجماهير الهامدة، مضيئة الأماكن المظلمة، شاقة طريقها إلى مراكز الجهل و الخرافات وبهذا كان الأمير عبد القادر يضع أسس الدولة الحديثة التي تجعل مصالحها تتلاءم مع مصالح السكان.(11)

وكان الحرص على وحدة الجزائريين وكرامتهم فوق أرضهم، تأكيدا على استمرارية سيادة الدولة الجزائرية وتطورها بانتهاء دور السلطة التركية و بروز جماعة جزائرية أكثر ارتباطا بالأرض و التحاما بالسكان. لقد كان الهدف الأسمى للأمير هو جعل سكان الجزائر شعبا واحدا ودعوتهم إلى المحافظة التامة على دينهم، وبعث الروح الوطنية فيهم، وإيقاظ كل قدراتهم التي سكنت في عهد الأتراك، سواء للحرب، أو التجارة، أو للأخلاق و التعليم.

وإذا كانت الجماعة الجزائرية-بتوجهها الإسلامي- لها غاية و شخصية مستقلة، فهي لا تسعى فقط إلى تأمين استقلالها، بل يجب عليها أن لا تهادن الكفر (الفرنسيون) بفكرتها، إذ في الكفر وحده يكمن العداء لها، و الخطر على وجودها. لذلك، وبالرجوع إلى العوامل السياسية والاجتماعية التي عاشتها الجزائر ، لايمكن اعتبار معاهدات الأمير مع الفرنسيين عملا عدائياً موجها ضد الجبهة الشرقية(أحمد باي ولا تواطؤا مع العدو، وإنما تكمن دواعيها في إرساء دعائم الدولة وتقوية الجيش وتأكيد الشرعية الجديدة، كما تعود أيضا تلك المعاهدات إلى الظروف الحرجة التي كان يعيشها الغرب الجزائري من جراء محاولة سلطان المغرب المستمرة لاستيعاب جهاد الأمير وإدخاله في نطاق نفوذه بعد إقرار سلطته على إدّعاء النسب الشريف وخلق صلات و روابط برجال الدين وشيوخ الزوايا و زعماء العشائر.

مهما قيل حول "مجازفة"الأمير و الأخطار التي لا يمكن التقليل من نتائجها على مستقبل مقاومته، فإن المعاهدات مع الفرنسيين قد أشعر المنافسين(شيوخ الزوايا والقبائل....وملك المغرب)أن الأمير عبد القادر أصبح الممثل الوحيد والزعيم - الديني والسياسي- الحقيقي لكل الجزائريين، الخصم الجدير بالاحترام في نظر العدو الذي يمثل الرفض الحي ، وهذا ما ساعد كثيرا على إخراج القضية الجزائرية نهائيا من إطار الدولة العثمانية، لتأخذ طابعا جزائريا محضا(12)

عند انسحاب "كلوزيل"بعد هزيمته في المناطق الرابطة بين وهران و تلمسان، بقي الأمير على اليقظة والجهود التي لا تعرف الكلل، خاصة بعد مجيء الجنرال"بوجو" حيث قضى أياما شاقة وليالي مضنية في جبال القبائل الممتدة حول

التافنة، داعيا، واعظاً، خطيبا ببيان ساحر هز حماس المقاتلين إلى ذروة الجنون، يندفعون إلى الكفاح، يحيطون بالمشاة الفرنسيين و يندمجون معهم في صراع فردي.

في الجهة المقابلة، حين اخبر أن المسمى "سيدي إبراهيم" قد اختار ساعة الهزيمة أمام "بوجو" ليعلن ثورته ،اعتبر الأمير ذلك خيانة وتولي يوم الزحف، فجرد سيفه من غمده، واتجه إلى قبيلة بني عامر التي كانت تأويه، فطلب تسليمه ليقيم عليه الحد عبرة للمترددين.' (13)

كانت هذه المواقف نابعة من انتساب الأمير عبد القادر إلى قبيلة هاشم العربية الأصيلة ومكانة أسرته الشريفة، وانتمائه الحضاري الإسلامي. لذلك، إذا طلب بعض شراح الإسلام من رجال الزوايا "القدرية"، جعل الجهاد، الذي هو مقاومة الاعتداء، فريضة "مؤقتة"بوقت الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته، وأن الاستعمار قضاء وقدر لا يمكن تغييره، فقد طلبوا في واقع الأمر إغفال الحرص على استقلال الجماعة الجزائرية المسلمة، و التنازل عن استمرار بقائها كوحدة في مواجهة الجماعات الأخرى.لذلك وإذا وضعنا المسألة الجزائرية ما بين 1840و1847 في سياقها الاجتماعي و الاقتصادي و البحث عن الأسباب العميقة للمنحى الذي اتخذته المقاومة ، يستحيل علينا أن لا نجد الدور الحاسم في الكفاح من الطرفين،بوجو والأمير عبد القادر جعل إرادتين تتقابلان: واحدة من أجل الغزو و الاستيطان و الأخرى من أجل الدفاع على أرض الأجداد و الحفاظ على القيم الوطنية.

و انسجاما مع فهمه لمبادئ الإسلام اعتبر الأمير هذه المحاولات دعوة صريحة للولاء للسلطة الاستعمارية وتمكينا للأغاليط و الخرافات التي ألصقت بالإسلام. من جهة أخرى تولد لدى الأمير تخوف من أن تقف الأوضاع الاجتماعية في طريق انصهار العناصر السكانية، وبذلك تستحيل أي مصالحة وطنية بين الفئات المحظوظة بالامتيازات و الفئات المحرومة و المضطهدة.

في النهاية نقول: هل كان استغلال الأوضاع الاجتماعية و الاستفادة من الصراع الداخلي من قبل الجيش الفرنسي حاسما في تأخير تبلور المجتمع الجزائري؟ وهل تمثل الأحداث العسكرية و السياسية مظاهر ونتائج مباشرة لواقع اجتماعي عاشته الجزائر في بداية الاحتلال؟

وهل تمثل مقاومة الأمير عبد القادر مشروعا وطنيا يهدف إلى التغيير والتحرر والإنعتاق يسمح للمجتمع الجزائري بالانتقال من تنظيم تفاضلي إلى تنظيم مساواتي؟(14)

الهوامش

(1)-شارل هنري تشوشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ش،و،ن-ت، الجزائر، 1982 ص:60.

(2)- مالك بن نبي،شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الطبعة الرابعة،1987،ص:22.
عندما برق في أفقنا فرس الأمير عبد القادر في وثبته الرائعة، كان الليل قد انتصف منذ وقت طويل، ثم اختفى شبح البطل الأسطوري كأنه حلم طواه النوم.
(3)-في حالة الجهاد عند الجزائريين(المسلمين) تصبح الغاية هي الآخرة (الشهادة) و تتحقق تاريخيا (دنيويا) في صورة التحرر الوطني.
(4)-Charles André Julien, Histoire de l'Algérie contemporaine, la conquête et les débuts de la colonisation (1827-1871)- Casbah Edit, Alger, 2005, P : 180.
(5)-Marcel Emerit, l'Algérie à l'époque d'Abdelkader, Edit Bouchene, 2002,P :15.
(6)-إسماعيل العربي، المقاومة الجزائرية تحت لواء الأمير عبد القادر، ش-و-ن- ت الجزائر، بدون تاريخ، ص:43.
(7)-Pélissier de Renaud ; Annales algériennes, Alger, 1836, Tome2P :255.
(8)-ناصر الدين سعيدوني، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر (الفترة الحديثة و المعاصرة)،الجزء الثاني ، م-و-ك، الجزائر، 1988،ص:211
(9)-يحي بوعزيز،مظاهر المقاومة و روادها في الشرق القسنطيني، مجلة الثقافة، عدد55، عام 1980، ص:13.
(10)-Charles Robert Ageron, genèse de l'Algérie algérienne, Edit Bouchene, 2005,P :12.
(11)راهن الجنرال "ديميشال" على شخص الأمير في القضاء على بقايا الإدارة التركية لأسباب استراتيجيه. -شارل هنري تشرشل، نفس المرجع السابق، ص:139.
(12)- نصر الدين سعيدوني، نفس المرجع السابق، ص:217.
(13)-شارل هنري تشوشل، نفس المرجع السابق، ص:107.
(14)-voir Mohamed Cherif Sahli, Abdelkader, le cavalier de la foi, ALGER, 1963.